الباب الثاني عشر

البنوة العلمية وآدابها

obeikandl.com

الفصل الأول

العروة الوثقى بين المريد والشيخ

نعني بهذه العروة تلك الصلة القوية التي تنشأ بين الشيخ والمريد، بين المربي والتلميذ، بين الأستاذ والطالب في إطار الجو الصوفي على وجه خاص، إذ أنه الجو النقي الذي يتنفس فيه الأستاذ شذا الرحمة والمودة، وتخرج من نظراته شعاعات الرقة والحنو، وتصل إلينا من يده لمسات العطف والشفقة، وتسري إليه أسماعنا من كلماته معاني الرأفة والحنان، وتصعد إلى عقولنا من عباراته دلائل التوجيه والنصح، ثم تهبط إلى قلوبنا من نسائمه دقائق الري والعرفان.

ويحرص على أن يقود نفوسنا إلى الخير والصفاء برقيق القول وعذب البيان، ففي قوله هداية، وفي صمته حكمة، وفي نطقه موعظة وفي تأمله دراية، كل هذا يتم والمريدون من حوله شغلوا بأنفسهم، وملكوا زمامهم، وتطلعوا إلى قيادته وأحكموا سيرها، وعرفوا قدره ورووا منه ظمأها، وظهرت لهم علومه فنهلوا من معينها، وبانت معارفه فاستلهموا أسرارها، وفاحت أذواقه فتنسموا إشراقها، ولمعت كواكب علومه فاستضاءوا بنورها، ورأوه محلاً لموارد الغيب فاغترفوا من سلسبيلها، ومتوجًا بثمين الدرر فتحلوا ببريقها.

تقدمت خطواته أقدام السائرين، وأضاءت مشاعله غياهب الطرق للمارين، ولوح بيده ليسوي صفوف المتوجهين، وحرك أصبعه مشيرًا بلا تشبيه ليتحقق بالوحدانية أصفى الموحدين، وسجد سجود القرب ليعلم من خلفه كيف تكون المذلة لرب العالمين؟، وخشع في مناجاته ليرق حال الداعين، وهطلت دموعه خشية لتسيل دموع الخائفين.

وسمعوا أزيز صدره فجرى وابل الواجلين، فلما أحرم عن المعاصي واستفتح

الباب طالبًا، ورتل السبع المثاني متمسكًا، وقرأ السورة متدبرًا ومستقيمًا على الصراط، وخضع لربه راكعًا ومعظمًا، ورفع منزهًا وحامدًا، ومتخليًا عن غيره متجردًا استعذب التفرد به فَخَرَّ إليه ساجدًا متقربًا، وداعيًا متذللاً، ثم قرب إلى ساحات الود وجنبات الأنس فألقى التحية جالسًا، وأسند الطيبات والصلوات لله متوجهًا، فأعطي الأمان والسلام، ونودي لا خوف عليك ولا حزن الآن.

ثم كشف له الحجاب وأزيل عنه الستار عن شهود موحدًا، ونفى الشريك عن الذات مفردًا، و لم ينس الخليل إبراهيم ومحمدًا فألقى عليهما السلام والتسليم وعلى آلهما ثم رجع من رحلة التوجه إلى الله، إني عائد من تلك الرحلة توًّا عرفتها وعرفت ما فيها: عرفت البداية تركًا وعرفت السير قولاً وفعلاً، ووقوفًا وركوعًا، وسجودًا واستئناسًا وجلوسًا، ومذلة وخوفًا وخشوعًا، وحبًّا وخُلَّة وسلامًا وأمانًا إني عائد إليها عن قريب، سأكررها مرات ومرات، أنا ملازم لها في الليل والنهار.

أداوم وصلها لتداوم وصلي، وأصلي لها لتصلي علي، أصلي لها خضوعًا لتصلي علي رحمة، أصلي لها خوفًا لتصلي علي أمانًا، أصلي لها مذلة لتصلي علي معزة، أصلي لها رهبة لتصلي علي اقترابًا، أصلي لها في محرابي لتصلي علي في ملئها، فهل تأتمون بي؟ وهل تقفون من خلفي لأسير بكم تلك الرحلة؟

إنهم أخذوني إلى ديارهم، وعلموني هناك، وانتشلوني من هنا وأوقفوني هناك وجردوني من هنا وكسوني هناك، وأفنوني عن هنا، وأبقوني هناك لما عشت في القصر حطمت الكوخ، ولما استظللت بوارف الأشجار كرهت خيال الأعواد، ولما لبست ثوب العز خلعت أثواب المعرة، ولما استضأت بالنور السرمدي أطفأت مشاعل الزيت، ولما قرأت من علوم اللوح حكمت قلمي والمحبرة ألقيت بورقي في اليم، ولما تغذيت بزاد التقوى أكفأت القدر، ولما بهرتني أضواء المدينة المنورة

كرهت حياة القرى، وأقمت في تلك المدينة لا أبرحها».

وأقول لا هجرة بعد الفتح، وأدعو: اللهم أطب الحياة فيها واجعل الموت عليها، لا أعود إلى قريش حتى يسلموا، أنا مع سكان المدينة وعلى الجميع أن يهاجروا إليَّ، أنا مقيم هناك فيها، إليَّ أيها القاصدون أدلكم على معالم المدينة وعلى أماكن الوحي فيها، وعلى الأحبة السابقين، لن تجد غيري أنا الذي حججت واعتمرت وزرت مرات ومرات، فعرفت الطريق فتعال إلى أصحبك، وانتظر داعيًا لعل الله يختار لك صاحبًا تهاجر معه وتجاهد معه وتقيم معه كي تكون كما كان صديقًا، ثم تكون خليفة ترقد تحت صدره وتهطل عليك بعد ذلك التسليمات من الزائرين.

والدية التربية

لما سبق ولأقدار الدعاة والهداة ولأن الشيوخ أهل فضل وولاية أحب المريدون أساتذتهم حبًّا جليلاً، وأكثر الصوفية القول بأن المربين أولى تقديرًا من الآباء، ولقد بينت تلك النظرة على أساس النفع الواصل من الشيخ إلى المريد وموازنته بنفع الوالد، وبيان أن الولادة بحكم الطبيعة يصل نفعها من الوالد إلى ولده بشرائط الوراثة، وبحكم الطبيعة والهوى والشهوة والغريزة.

وعندما يقوم الوالد بتربية ابنه صلبًا إنما يفعل ذلك بدافع الحرص النفسي والغريزي، والقيام بمهمة مفروضة عليه أصلاً بدوافع جنسية ونفسية وعاطفية واجتماعية، وعلى فرض أنه أحسن اسمه وتربيته فإن ذلك غالبًا ما يكون للنفع الدنيوي فحسب أما الشيخ الصوفي حينما تستند إليه مهمة التربية للابن في العهد فإنه يقوم بها وبحكم الهدي والإرشاد والرغبة في التهذيب والترويض.

وتسري منه إلى السالك ينابيع الحكمة ويسقي الولد من والده ري الحال

حيث صار الشيخ بالجذب أو بالتزكية معدن الحكم، ولسانه وجوارحه آلات الدعوة والهدي[1]، وبالتالي فرتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة البنوة في الدعاء إلى الله تعالى[2].

ولقد سئل أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري المتوفى قريبًا من (٣٣٠هـ) فقيل له: ما بال الإنسان يحتمل من معلمه ما لا يحتمل من أبويه؟ فقال: لأن أبويه سبب حياته الفانية ومعلمه سبب حياته الباقية[3] أما إبراهيم الدسوقي فيقول: الشيخ هو والد السر، وقدمه على والد الجسم، فإن والد السر أنفع من والد الظهر[4] ويقول الشيخ دواد بن ماخلا: أستاذك مقدم على خدمة أبيك، لأن أباك كدرك وأستاذك صفاك، وأباك سفلك وأستاذك علاك، وأباك مزجك بالماء والطين وأستاذك رقاك في أعلى عليين[5].

ويعترف ابن الجوزي والشوكاني بتلك الحقيقة وأن الأولياء من الشيوخ هم المقصودون من الكون، وهم الذين علموا فعملوا بحقيقة العلم[6]، أو هم خلص عباد الله القائمون بطاعته والمخلصون له، وإذا أجلهم المريدون وأكبروهم عن آبائهم فلما اختصهم الله به ميراث النبوة، وهذه منزلة جليلة ورتبة جميلة لا تعادلها منزلة ولا تساويها قربة[7].

فكان أول منزل من منازل التقدير والإجلال يظهر من علاقة المريد

---

(١) السهرودي: عوارف المعارف: ٧٣، ٧٤.
(٢) نفسه.
(٣) السلمي: طبقات الصوفية: ٩٦٠.
(٤) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ١٥٣، ١٦٩.
(٥) نفسه.
(٦) ابن الجوزي: صفة الصفة: ج١: ٩ – ١٠.
(٧) الشوكاني: قطر الوالي عن حديث الولي: ٢٢٤.

بالشيخ هو احترام واعتبار درجته في الرتبة وأنها تفوق درجة الوالد، وذلك لأن المقصود من الخلق أصلاً ليس تكثير سواد البشر وإنما هو العبادة كما تنص آية الذاريات [٥٦] والعبادة لا تأتي بالهداية، والهداية لا بد لها من نبي أو وريث له، وأرقى الوارثين هم الأولياء، ولذا جعل الله تبارك وتعالى درجة النبي ﷺ فوق كل رتبة دنيوية ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤] بل اعتبرته سورة الأحزاب أولى بالمهديين من أنفسهم فقال جل شأنه: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٦].

تخير المريد لشيخه

إذا لم يسقه الله إلى شيخ وكان الاختيار كسبًا فعلى المريد أن يتخير شيخه، وعليه أن يدور باحثًا عن أستاذ تلتقي معه نفسه، ويستريح له خاطره ويجمع عامل الجنسية والنفسية والتأليف الإلهي لروحهما، وإنما لزم ذلك خشية انتقال المريد من شيخ إلى شيخه آخر فيغضب المنقول عنه، وكذلك فإن المريد لو تردد قلبه في شيخ ولم يكن واثقًا به كل الثقة فإنه لا يستفيد منه.

وقد أشار السهروردي إلى هذين السببين فقال: يجب على المريد ألا يصحب شيخًا إلا إذا كان متأكدًا من نفعه له وقدرته على تأديبه، وتربيته لأنه متى كان عند المريد تطلع إلى شيخ آخر لا تصفو صحبته، ولا ينفذ القول فيه، ولايستعد باطنه لسراية، حال الشيخ إليه وإذا تردد المريد في شيخه وصلاحيته لا تدخل المحبة قلب المريد «المحبة أو التآلف هو الواسطة بين المريد والشيخ، وعلى قدر المحبة تكون سراية الحال، لأن المحبة علامة التعارف والتعارف علامة الجنسية والجنسية

حالية للمريد حال الشيخ أو بعض حاله[1]، وتبعًا لذلك فقد وجب التريث في الاختيار، والتأني في قصد الشيخ الذي سيسلك على يده المريد.

هلى من الآداب لزوم شيخ واحد أو أكثر؟

تطالعنا كتب الطبقات في ترجمتها للشيوخ بأن منهم من سلك أو صحب شيخًا واحدًا ومنهم من صحب أكثر من شيخ، وفي البداية قد ينظر إلى هذه المسألة على أنها ليست ذات فائدة كبرى، أو لا فائدة من بحثها فماذا يراد من السالك سوى أن يتلقى من شيخ؟ فإن انفرد أو تكرر فالمهم أنه لقي شيخًا أو شيوخًا.

ولكن قيمة هذه المسألة تعرف في ضوء الحرص الكبير من المريدين على عدم إغضاب الشيخ بأي شكل من الأشكال، ويربطون مقدار النفع في الطريق بالأدب والمحبة بين المريد وشيخه، فإن تغير قلب الشيخ على المريد فلن يكون معه استفادة، ولا شك أن انتقال المريد من الشيخ إلى شيخ قد يؤثر في العلاقة بينه وبين المربي، ومن ثم كان ضروريًّا أن تثار تلك المسألة وأن نجد لها حلاً مرضيًا.

بعض من لزم شيخًا واحدًا

ومن الذين سلكوا على يد شيخ واحد ولزموه شقيق بن إبراهيم البلخي (١٩٤هـ) مات شهيدًا في غزوة كولا ببلاد ما وراء النهر، فقد كان من تلاميذ إبراهيم بن أدهم (١٦١هـ) وأما معروف الكرخي (٢٠٠هـ) فقد صحب داود الطائي، وكان حاتم الأصم (٢٣٧هـ) تلميذًا لشقيق بن إبراهيم، كما لزم سهل بن عبد الله التستري (٢٧٣، ٢٨٣هـ) خاله محمد بن سوار، وتبع خير النساج (٣٢٢هـ) أبا حمزة البغدادي[2].

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف: ٢٠٢.

(٢) طبقات الصوفية، وطبقات الأولياء ترجمة هؤلاء الشيوخ.

وقد أكد محمد أبو المواهب الشاذلي على ضرورة السلوك على يد شيخ واحد فقال: ينبغي لمن خدم كبيرًا ألا يخدم أحدًا بعده إلا إذا كان أكبر منه وأن يظهر العلة لمخدومه حتى يشفع فيها له عند الله[1].

ويقول الشيخ علي بن محمد وفا: اثبت اثبت فما تثبت شجرة قط قطعت زمانها في التنقل من مغرس إلى مغرس[2] وحكي عن الشيخ محمد الجزولي مؤلف دلائل الخيرات قال: قيل لي يقصد رسول الله ﷺ في حديثه معه يقظة قل لأصحابك لا تذنبوا بالإسرار، فقلت: وما ذنب الإسرار؟ فقيل لي: الالتفات، فقلت ما الالتفات؟ وعمن؟ فقيل لي: الالتفات عنك أي عن الشيخ عامة[3].

ويعلل الشيخ محمد فتح بن المختار بن الرضا أحمد بن محمد فتح صاحب الطريقة التيجانية لم اشترط الصوفية لزوم شيخ واحد؟ فأرجع ذلك إلى:

١- الخوف من التردد بين شيخين، وانشغال قلبه بهما، فيرفض من قلبيهما معًا.
٢- ولأن الشيخ الذي يرى من مريديه الالتفات إلى شيخ غيره يقطع عنه نصحه ومعونته.
٣- والمريد الذى يدخل في صحبة شيخ وهو يرى أن في الوجود شيخًا مثل شيخه أو أكمل يبقى متشوقًا لذلك الأكمل في اعتقاده، فيراه شيخه متشوقًا إلى غيره فلا يتحمس لتربيته ولا لتوجيهه.
٤- وإذا تشوف أو نظر إلى غير شيخه لا يصفو له وقته ولا يستعد باطنه لسراية حال القدوة وقد يحرم بركة الأول والثاني[4].

---

(١) الشعراني ج٢: ٦٤، ٤٩.
(٢) الشعراني ج٢: ٦٤، ٤٩.
(٣) الشيخ السايح: بغية المستفيد: ٢١٩، ٢٢٠.
(٤) نفس المصدر.

ولا يصح أن يقال هنا: إن التربية العامة تسمح بورود التلميذ على عدة أساتذة كل في مجال تخصصه فلم لا يسمح بمثل ذلك حرصًا على المنفعة الكثيرة من الشيوخ العارفين؟

وتكمن الإجابة في الاختلاف البين بين النوعين من التربية حيث تركز العامة على التربية الظاهرية مع مراعاة الجانب النفسي والاستعدادات، وتهتم التربية الصوفية بالجانب الباطني اهتمامًا كبيرًا بعد أن يكون المريد قد حصّل علوم الظاهر تحصيلاً يخدمه في سيره، ويلازمه، ومن هنا فإن التربية الخاصة تبدأ حيث تنتهي التربية العامة.

وإذا كان كذلك فإن ملازمة المريد لشيخ بصير وطول مكثه معه سيؤدي بالقطع إلى تعرف المربي على الجوانب النفسية للمريد تعرفًا صحيحًا، وستكون الملازمة عاملاً قويًّا لإمكان التعرف على ما لديه من علل وآفات بعكس التنقل بين الشيوخ فلن يتيح تلك الفرصة الكافية لكل منهم لدراسة هذا المريد الطواف ويبقى بلا توجيه محكم وصائب لما في داخله، والشيوخ هنا أشبه بالأطباء، فعندما يلزم المريض طبيبًا واحدًا يكون ذلك أدعى إلى معرفة الطبيب به، ومتابعة حاله وسيره.

وإذا تغير الشيخ على المريد المتنقل فما تغير بعد ما قلناه إلا لمصلحة السالك نفسه كأن اطلع الشيخ من طريق كشفه على أن فتحه لا يكون إلا على يديه فأظهر له التكدر ليلازمه مصلحة له لا لعلة أخرى من حظوظ النفس أو هواها على حد ما جاء في كلام سيدي علي الخواص الذي يؤيد فهمنا السابق ونستند إليه.

بعض من لزم أكثر من شيخ

ومع اهتمام الصوفية الشديد بلزوم شيخ واحد كما رأيت، وحرصهم على بيان الأسباب إلا أننا نرى أن قلةً هي التي لزمت شيخًا واحدًا بينما تنقلت الأكثرية بين الشيوخ وتعرفت على عديد من المربين فنجد أحمد بن أبي الحواري (٢٣٠هـ) يصحب أبا سليمان الداراني وسفيان بن عيينة ومروان معاوية الفزاري وومضاء بن عيسى، وبشر المريسي، وأبا عبد الله الباجي، ولقي أحمد بن خضروية (٢٤٠هـ) أبا التراب النخشبي، وحاتم الأصم، وأبا يزيد البسطامي الذي رحل إليه خصيصًا.

وصحب أبو تراب النخشبي (٢٤٥هـ) أبا حاتم العطار، وحاتم الأصم ويصرح يحيى بن الجلاء (٢٥٨هـ) أنه لقى ستمائة شيخ فاستحسن منهم ذا النون وأبا تراب وأبا عبيدة اليسري، وأما أبو حفص النيسابوري (٢٧٠، ٢٦٧هـ) فلقي عبد الله بن مهدي الإبيردي، وعليًّا نصر أبادي.

وكان حمدون القصار (٢٧١هـ) من أصحاب مسلم بن الحسن الباروسي أبي تراب، وعلي النصرأبادي، وصحب سحنون بن حمزة المحب (٢٧٨هـ) سري السقطي، ومحمد بن علي القصاب، وأبا أحمد القلانسي.

ولقي أبو سعيد الخراز (٢٨٩هـ) ذا النون المصري، وأبا عبد الله النباجي، وأبا عبيد اليسري والسري السقطي، وبشر بن الحارث وغيرهم،وأما أبو حمزة البغدادي (٢٨٩هـ) فصحب السرى وبشرًا أيضًا ونسب عمرو بن عمثان المكي (٢٩١هـ) إلى الجنيد في الصحبة ولقي أبا عبد الله النباجي وأبا سعيد الخراز.

وتتلمذ أبو الحسين النوري (٢٩٥هـ) على السري السقطي، ومحدم بن علي القصاب وكذا تربىَّ أبو القاسم الجنيد (٢٩٧هـ) على يد خاله السري،

والحارث المحاسبي، ومحمد القصاب البغدادي وغيرهم.

والتقى أبو عثمان الحيرى النيسابوري (٢٩٨هـ) بيحيى بن معاذ الرازي وشاه الكرماني ثم رحل إلى نيسابور فلقي أبا حفص النيسابوري وصحبه وأخذ عنه طريقته، وصحب ممشاد الدينوري (٢٩٩هـ) يحيى الجلاد ومن فوقه من المشايخ، ولقي أبو العباس مسروق الطوسي (٢٩٩هـ) الحارث بن سد المحاسبي، والسري بن مغلس السقطي، ومحمد بن منصور الطوسي

والتقى شاه الكرماني المتوفى قبل (٣٠٠هـ) بأبي تراب النخشبي وأبي عبد الله الراع وأبي عبد الله اليسري، وتتلمذ يوسف بن الحسين الرازي (٣٠٤ هـ) على ذو النون المصري وأبي تراب النخشبي.

ولقي أبو عبد الله بن الجلاء (٣٠٦هـ) أباه يحيى الجلاء وأبا تراب وذا النون المصري، وكذا صحب أبو العباس بن عطاء الآدمي (٣٠٩، ٣١١هـ) إبراهيم المارستاني، والجنيد بن محمد ومَنْ فوقهما من المشايخ، وتلقى أبو محمد الحريري (٣١١هـ) من سهل التستري وأصحاب الجنيد.

وعن الجنيد وأبي الحسين النوري وعمرو بن عثمان المكي والفوطي أخذ الحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩هـ) وعن الجنيد وغيره تلقى بنان محمد (٣١٦ هـ) وأخذ أبو بكر الواسطي (٣٢٠هـ) من أبي القاسم الجنيد وأبي الحسن النوري، وأبي حمزة، وصحب أبو بكر الكتاني (٣٢٢هـ) الجنيد وأبا سعيد الخراز وأبا الحسين النوري.

وصحب أبو محمد المرتعشى النيسابوري (٣٢٨هـ) أبا حفص الحداد، وأبا عثمان الحداد، ولقي الجنيد وصحُبه وأقام ببغداد.

وأما أبو عبد الله القرشي (٥٩٩هـ) شيخ السالكين، وإمام العارفين وقدوة المحققين كما وصفه أحمد المقري مؤلف نفح الطيب فقال: صحبت ستمائة شيخ اقتديت منهم بأربعة: الشيخ أبي الربيع، والشيخ أبي الحسن بن طريف، والشيخ أبي زيد القرطبي، والشيخ أبو العباس الجوزي[1].

فأنت ترى أن هذا العدد الوفير قد تربى أو صحب أو لقي جماعة من الشيوخ ولم يقتصر كل منهم على واحد بعينه وإن جاء على لسان يحيى بن الجلاد أو أبي عبد الله القرشي أنهما لقيا ستمائة شيخ فقد يكون ذلك مبالغة في الكثرة وسواء أكان ذلك حقيقة أم مبالغة فإنه دالٌّ على لقاء عدد جم من الشيوخ.

الواحد للتربية والتعدد بركة

وبعد أن وقفنا على نماذج ممن لزم شيخًا ونماذج ممن صحبوا أكثر من شيخ نأتي إلى حل الإشكال وإلى تفسير تلك الظاهرة، هذا الحل الذي يعود إلى طبيعتين، أو يرتبط بشعبتين طبيعة الشيوخ وطبيعة المريدين:

أما طبيعة الشيوخ

(أ) فإنك تلحظ من خلال التنقل الهائل بين الشيوخ أن المربين في صدر الحياة الروحية كانوا يتصفون بروح التسامح وسعة الصدر، والحرص على نفع المريدين، ولذا سمحوا لهم بلقاء أكثر من مربٍّ، فالقصد من التربية كان منحصرًا في التهذيب والتسليك بصرف النظر عن اعتبارات أخرى، ولما كان كذلك فلم يجد المريد تبرمًا من الشيخ في لقائه بآخر ولم يضق الشيخ صدرًا بالمريد إن هو ذهب إلى غيره.

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: ج٤: ٢٠٤، المقري نفح الطيب: ج١: ٢٤٨، السلمي: طبقات الصوفية، ترجمة من ذكر، وابن الملقن طبقات الصوفية، تراجم الشيوخ المذكورين.

(ب) وقد يصادف المريد شيخًا ملمًّا واسع الاطلاع غزير المادة عليمًا بالنفوس وأدوائها، فيجد فيه نهمته، ولديه علاجه ودواءه فيلزمه ويخضع لتربيته، وقد يجد غير ذلك بأن يلتقي مع شيخ لا يرى نفسه مستجيبةً له، ولا باطنه متآلفًا معه لشيء ما يتصل بطريقة الشيخ أو علمه فيأخذ منه قدرًا ثم ينتقل السالك إلى آخر، ولما كان الكمال في تلك الرتبة لا يتحقق إلا لقلة، ونفوس المريدين طلعة إلى هذا الكمال فإنه من هنا قد يجد السالك نفسه مضطرًّا لأن ينتقل من شيخ لآخر تحقيقًا لمنفعته، وحرصًا على سلوكه.

وأما ما يتصل بطبيعة المريد

(أ) فمن الطالبين من يكون في بدايته قلقًا مضطربًا، لا يثبت عند شيخ معين بل يلتقي بهذا، ويرحل إلى ذلك، وفي هذه الحالة غالبًا ما تصادف المريدين في بدايتهم لا سيما وأن تلك البداية شديدة ويتسم صاحبها بالتقلب والانزعاج أما إذا استغرق في محبة شيخه الاستغراق الموصوف لا يقدر أن يلتفت إلى غيره[1] على حد ما نُقِلَ عن الشعراني.

(ب) وقد يكون المريد محبًّا للمعرفة نهمًا في تلقيها من مظانها المتعددة، وتقتضيه تلك الحالة أن يتردد على أكثر من شيخ لكي ينال بركتهم، أو ليحصل على جمل المعارف التي يتفرد بها من كل مربٍّ، ومن هنا فإنه يجب أن تفرق بين لقاء المريد بشيخ لنوال بركة أو استزادة معرفة، وبين ملازمته لآخر بقصد التربية المستمرة.

ولعل قول السلمي في ترجمته لعبد الله بن خبيق الأنطاكي المتوفَّى قرب (٣٠٠هـ) قال: صحب يوسف بن أسباط وصحب النوري وطريقته في

---

(١) السايح: بغية المستفيد: ٢٢١.

التصوف طريقة النوري[1]، ما يفرق بين لقاء التربية وصحبة البركة.

فالمريد وإن تعددت اتصالاته بالشيوخ إلا أنها كانت للتبرك فقط، أما شيخ التربية فيجب أن يكون واحدًا يستمر معه لكي يتمكن الشيخ مع طول التردد عليه من دراسة المريد وخبرة نفسه وتوجيهه توجيهًا صحيحًا، ولأن ملازمة شيخ واحد في التربية لا يوقع المريد بين تعدد التوجيهات وكثرتها مما يؤدي إلى تشويشه.

وإلى إفساد التربية وإلى هذه التفرقة بين صحبة البركة المتعددة، وملازمة الواحد للتربية خشية الإفساد والتشويش يشير صراحة ابن عربي، إذ يقول: كما لم يكن وجود العالم بين إلهين، ولا المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع ولا امرأة بين زوجين كذلك لا يكون المريد بين شيخين إذا كان مريد تربية فإن كان مريد صحبة بلا تربية فلا يبالي بصحبة الشيوخ كلهم لأنه ليس تحت حكمهم وهذه الصحبة تسمى صحبة البركة غير أنه لا يجيء منه رجل في طريق الله فالحرمة أصل في الفلاح[2].

وقول ابن عربي بعدم وجود العالم بين إلهين وإلا فسد، وعدم وقوع المكلف بين رسولين وإلا ما تحمل التكاليف، والمرأة بين زوجين وإلا اختلطت الأنساب، يدل كل على اضطراب المكلف إن وقع كذلك بين مصادر توجيه متنوعة، ومن هنا وتبعًا لهذه التفرقة المشار إليها فإنه سواء ذهب المريد إلى هذا أو ذاك من الأولياء فإن سلوكه في النهاية سيكون على نهج شيخ بعينه، وعليه أن يلتزم طريقته ونصحه إن أراد الاستفادة الصحيحة.

(ج) والمريد كالمريض يعرض نفسه على الأطباء فإن صادف طبيبًا، حاذقًا عرف

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية: ٣٣، ٣٤.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٢: ٤٨٣.

علته ووصف له العلاج لزمه وإلا عرض نفسه على آخر، وقد تهجم الأمراض على المريد وتتعدد عليه فيضطر مع ذلك إلى الذهاب إلى أكثر من شيخ حتى يقضي على ما لديه من آفات بحيث يقوم كل شيخ بتناول علة وفحصها وعلاجها، ويظل كذلك حتى يسكن مع طبيب يجتث ما تبقى، فيركن إليه القاصد ويلزم بابه.

(د) وإذا فرقنا بين صحبة البركة وصحبة التربية فماذا يكون حالنا مع الشيوخ الذين نتصل بهم فقط ولا نتربى على أيديهم؟

يجيب ابن عربي قائلاً: كلهم قالوا بوجوب حرمة شيخه عليه، هذا موضع إجماعهم وما عدا هذا فمنهم من قال حاله معه على السواء من حاله مع شيخه، ومنهم من فصل وقال: لا تكون الصورة واحدة إلا بعد أن يعلم المريد أن ذلك الشيخ الآخر ممن يُقْتَدى به في الطريق، وأما إذا لم يعرف ذلك فلا[1].

والتفصيل مقبول لمن يستطيع التفرقة بين شيخ التربية وغيره أما إذا كان المريد لا يستطيع التمييز بينهما، ولم يصل إلى علمه تمييز من موثوق به فليحذر الوقوع في شيخ يجهل حاله وليحذر الجرأة على حرمته فلربما كان على قدم كبير وهو لا يدري.

---

(١) نفسه.

obeikandl.com

الفصل الثاني

علاقة المريد بالأستاذ

تختلف التربية الصوفية في سنن الآداب ومراعاتها اختلافًا كبيرًا عن التربية العامة حقًا إن الأخيرة تخترع آدابًا بين قطبي التعلم، وتنبه على ضرورة الالتزام بها من الطرفين. ولكن الآداب الصوفية المقررة بينهما تختلف اختلافًا كبيرًا عن تلك التي تتبع في التربية العامة إذ إن آداب السلوك الصوفي تحوي ما هو مقرر في التربية الحديثة ونزيد عليها زيادة تتلائم مع أغراض تربيتنا الروحية، ولا ينظر إلى الآداب من حيث وضعها أو كميتها واستيعابها، أو نوعيتها ورقتها فحسب بل ينظر إليها على أنها جزء هام في عملية التربية.

وهي وسيلة ضرورية من وسائل التسليك وبدون مراعاة الآداب المقررة لا يصل المريد إلى بغيته ولا ينال حظوته عند الشيخ، وقد لا يستمر في ضيافته التربوية، و لم نجد رجالاً دققوا في الآداب الإسلامية والتربوية بصورة تفوق تلك التي كان عليها الصوفية، أو نفذوها على الوجه التام الذي قام به شيوخ الطريقة وتلاميذهم، ولأنهم اعتبروا الآداب درجة من درجات السلوك وبابًا صحيحًا يجب الدخول منه سنفرد له فصلاً مستقلاً في مراحل السلوك ومناهجه.

ونكتفي هنا بالقول بأن تفصيل الآداب وتطبيقها لم يكن مرحلة ثانوية مساعدة للتربية أو معينة على سيرها، وإنما كان قاعدة هامة يجب اتباعها واستيفاء شروطها، وهي تعتبر جزءًا سلوكيًّا بدونه لا تتحقق أغراض التربية الصوفية هذا على وجه الإجمال، وأما ما يخص آداب المريد مع شيخه فإنها تنبع كذلك من الخلق الفاضل الذي يمتاز به الشيوخ في ذواتهم وفي معاملتهم لتلاميذهم، ومن ثقة المريد في أستاذه ثقة تفوق أرقى العلاقات التربوية نظرًا لأن الطالب ينظر إلى

شـــيخه لا على أنه إنسان فاضل في خلقه وسلوكه فحسب ولكن على أنه ملهم من اللـــه، وصاحب بصيرة يرى بها بنور اللـــه سبحانه.

ومن هنا يتفانى في خدمته، وينطبع انطباعًا كاملاً على التأدب معه، ويرى أن الـــتأدب مع الشيخ هو تأدب مع الحضرة الإلهية ومع الرسول ﷺ لأن الشيخ دال عـــلى اللـــــه وآخـــذ بيد المريد للسير على هدي رسول اللـــه صلوات اللـــه وســـلامه عليه، ومن هنا كان تأكيد واضعي قواعد السلوك وآدابها عليها تأكيدًا بارزًا، وسترى ذلك من خلال تفصيل هذه الآداب.

١ـ معرفة الشيخ وحسن الاعتقاد فيه

عرفـــت في الفصل السابق ضرورة اختيار الشيخ، وينبغي عليك بعد اختياره أن تتفحص منـــزلته، وأن تتعرف عليه تعرفًا سليمًا يليق بقدر الأستاذ وفضلـــه، ولتعرف أنه من عبيد الحضرة فتستفيد بمصاحبته والجلوس معه، ولقد أشار الشيخ عـــلي وفـــا إلى قـــيمة تلك المعرفة فقال: معرفتك بحقيقتك على قدر معرفتك بأستاذك[1].

ويعـــني ذلك أن المريد لا يستطيع معرفة ما بداخلـــه، وما يدور في نفسه أو ما فيها من عيوب وآفات في البداية، وما يمر بها من خواطر وحقائق في النهاية إلا مـــن خلال الدراية الكاملة بشيخه، فكلما كان الشيخ واسع الفقه والعلم مستنير البصـــيرة اطلـــع على تلميذه، وكشف بنور قلبه وخبرته أمراض السالك وأدواءه ووصف لـــه علاجه، فيعرف المريد حقائقه تلك من خلال تعريف شيخه لـــه.

ويظل يترقى في معرفته بشيخه والاقتراب من ذاته حتى يدرك أنه لا أحد في هـــذه الديـــار أولى بـــه منه في تولي تربيته، والقيام على رعايته ونصحه فيحسن اعـــتقاده في الأســـتاذ، ويزداد حبه والسكون عنده والطمأنينة إلى مقامه، وعلو

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٢٩.

درجته ورقي حاله وإلى هذه المعاني وثماره يصرح الشيخ عدي بن مسافر (٥٥٨هـ) قائلاً: لا تنتفع بشيخك إلا إذا كان في اعتقادك فيه فوق كل اعتقاد، وهناك يجعلك في حضوره، ويحفظك في مغيبه، ويهذبك بأخلاقه، ويؤدبك بأطراقه، وينور باطنك بإشراقه، وإن كان اعتقادك فيه ضعيفًا لا تشهد فيه شيئًا من ذلك بل تنعكس ظلمة باطنك عليك فتشهد صفاته هي صفاتك فلا تنتفع به أبدًا ولو كان أعلى الأولياء درجة[1].

أي إن المريد إن أحسن اعتقاد في الأستاذ واطلع على ذلك شيخه جعله في خاطره حال حضوره وغيابه، وبذل له من التوجيه في التهذيب والترويض ما يجعله سائرًا على طريق التصفية المنشودة، وإذا لم يكن المريد كذلك، ولم يحسن ظنه بشيخ لا ينكشف نور باطن الشيخ للمريد، بل تحجب تلك المنطقة عنه، ويصبغه بصبغته هو، فيرى صفات الشيخ هي عين صفات المريد، ويقيس ما يصدر عنه بما يحمل السالك في بدايته من علل وآفات أي إن المريد يرى الشيخ بمنظار رؤيته هو لنفسه لا أكثر لأنه إنما يفهم الآخرين بما ينطبع في ذاته لا بما هم عليه حقيقة.

ويترتب على حسن الاعتقاد في الشيوخ أنه إن جالسهم يتخلى معهم عن الأضداد والميل عنهم، ويترك التجسس على عقائدهم، وخصوصياتهم حسبما يرى سيدي أبو الحسن الشاذلي (٦٥٦هـ) وأن يكون الشيخ في خاطره، ولا يهمل ذكراه ولا ينشغل عنه.

يقول الشيخ أحمد أبو العباس المرسي (٦٨٦هـ): لا تطالبوا الشيخ أن يكون في خاطركم، ولكن طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم فعلى مقدار ما

---

(١) نفسه ج٢: ١١٧، والغنية لطالبي الحق: ٢: ١٤٦، وعوارف المعارف: ٢٠٢.

يكـــون عندكم تكونوا عنده[1]، فليس على المريد أن يطلب الشيخ بأن يشغلـــه بـــه أو يرد على خاطره، ولكن على التلميذ أن يطالب نفسه بالانشغال بأستاذه، فـــإن انشـــغل به استمع لـــه ورأى نصائحه معه، وأقامها موضع التنفيذ، فانتفع واســـتفاد في كل مقام ومنـــزل، وكان صادقًا في إرادته مع نفسه ومع شيخه، وبـــتلك القـــاعدة ينطق الشيخ علي بن محمد وفا: اطلب من نفسك الصدق في معرفة خصوصية أهل التخصص ومحبتك لهم تنل منهم ما تريد، ولا تطلب منهم أن يشغلوا قلوبهم بك وتهمل أنت أمر نفسك فإن ذلك قليل الجدوى[2].

٢ـ التخلي والخضوع والاستسلام

ويلزم المريد السالك أن يدخل الطريق متخليًا عن كل ما يشغلـــه عن قواعد التربـــية وضرورات السلوك وعن كل ما يشوش قلبه، أو يلهيه عن التعمق الباطني في نفســـه، ولهذا حدثنا ممشاد الدينوري المتوفَّى (٢٩٩هـــ) قائلاً: ما دخلت قط على أحد من شيوخي إلا وأنا خالي من جميع ما لي أنظر بركات ما يرد علي من رؤيته، ومجالسته وأدبه وكلامه[3].

ويـــنادي ســـيدي عبد القادر الجيلاني على مريده: إذا دخلت علي فادخل عـــريانًا عـــنك، عريانًا عن نفسك وهواك، ولكن آفتك فهمك السقيم، يا مريد صـــحبتي والانتفاع بي حالتي ليس فيها خلق ولا دنيا ولا آخرة فمن يتوب على يدي، ويصحبني ويحسن ظنه في، ويعمل بما أقول، هكذا يكون إن شاء اللـــه عز وجـــل[4]، ولابد أن يأتي الشيخ بقلب سليم من الحظوظ والشهوات البهيمية[5]

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٥، ١٣، ٢٦.
(٢) نفسه: ٦٧.
(٣) نفسه.
(٤) الجيلاني: الفتح الرباني: ١٥.
(٥) الشعراني: الطبقات الكبرى ج٣٦: ٢٦، ج١: ١٥٣، والغنية: ج٢: ١٤٧، والشعراني في الطبقات ج١: ٨.

على حد تعبير علي بن محمد وفا.

وإذا تخلى من حظوظه ونفسه وشواغلـه وورد على ساحة شيخ يسلم لـه يـده، ولـيلقي لـه زمامه ولا يتصرف في أمر من أمور نفسه إلا بالرجوع إلى شيخه ويكون كالميت بين يدي شيخه لا حركة ولا كلام ولا يتحدث إلا بإذنه، ولا يسافر ولا يتزوج، ولا يخرج ولا يدخل في خلوة أو عزلة أو مخالطة أو يشتغل بعلم إلا برأي الشيخ: ولا تعرف العقول ضابطًا تضبطه به إنما الأمر علم في سائر الأحوال، وما جعلوه إلا كالميت بين يدي الغاسل[1] مثلما جاء في أقول الجيلاني والسهروردي والدسوقي.

وبعد أن يتخلى ويتجرد، ويسلم لشيخه التصرف في أمر نفسه ودنياه ودينه ويستمع تمامًا لنصحه ويستسلم له، يشترط الصوفية أن يكون ذلك برضى وخضوع وتواضع لا بالقهر والتسلط من الشيخ، أو بالضيق والضجر من المريد بل ينبغي أن يفعل المريد ما يفعل مع شيخه من تسليم وخضوع وتواضع ونفسه بذلك راضية، وقلبه مطمئن كل الاطمئنان، فالترمذي أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين يرى أنه من شرائط الخادم التواضع والاستسلام[2]، وعلى قدر الخضوع يكون نجاح المريد وانتصاره على نفسه، وبمقدار التفويض للشيخ تحدث له الاستفادة التربوية على حد ما ورد إلينا من أقوال فريد الدين العطار[3] وينشد ابن الفارض:

فخل لها قيادك معطيًا قيادتك من نفس بها مطمئنة[4]

---

(١) نفس المراجع السابقة.

(٢) الجيلاني: الفتح الرباني: ١٥.

(٣) د. عزام: التصوف وفريد الدين العطار ١٠٠.

(٤) الديوان: القصيدة التائية.

أي خـــل لذات الشيخ قيادتك، وأعط لها نفسك، واطمئن بهذا الاستسلام فـــإنك قد أودعتها يدًا أمينة، ولسانًا ناصحًا، وقلبًا رحيمًا، وبصيرة مستنيرة، ولا نعجـــب من مثل هذه الآداب فإن أصحاب رسول اللـــه ﷺ كان يجلسون حول رســـول اللـــــه ﷺ ولا يستطيع أحد أن ينظر إليه حياء منه وذلك فيما أخرجه الترمذي عن أنس رضي اللـــه عنه أن رسول اللـــه ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر رضي اللـــه عنهما فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما[1].

وأخرج الطبراني وابن حبان في صحيحه قال: كنا جلوسًا عند رسول اللـــه ﷺ كأنما على رءوسنا الطير ما يتكلم منا متكلم، وأخرج أبو يعلى وصححه عن البراء بن عازب رضي اللـــه عنه قال: لقد كنت أريد أن أسأل رسول اللـــه ﷺ عن الأمر فأؤخر سنتين من هيبته[2].

وكان الصحابة يرهبون عمر في مجلسه، وكذا كان أصحاب الفضل يرهبون في عصـــر الصحابة والتابعين وتابعيهم فقد حدثنا بكار بن محمد قال: كان عبد اللـــــه بن عون بن أرطبان (١٥١هـــ) إذا جاء إخوانه فسلموا عليه كأن على رءوسهم الطير، لهم خشوع وخضوع ليس أراه لأحد، وكان يرد عليهم وعليكم السلام ورحمة اللـــه وبركاته[3].

وأما صلة هذه الآداب من التخلي والاستسلام والخشوع والخضوع بالتربية فإنه لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها آداب تخص ذات الشيخ، أو أن المريد يرهب

---

(١) القاضي عياض: الشفاء: ج٢: ٣٣ وحياة الصحابة: ج٢: ٥٧٩.
(٢) ترجمان السنة: ج٢: ٣٦٧، ٣٧٠، وحياة الصحابة: ج٢: ٥٧٩، ٥٨٠.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج٢: ٢٥.

أو يخضع ويخشع في مجلس المربي خوفًا منه، ورهبة عبد لعبد وإنما هي آداب ضرورية للتربية إذ إن من جاء يقصد السلوك ويطلب القرب في حضرة قطب واصل أو ولي مكاشف فلا ينبغي أن يجالسه بحظوظ نفسه، وشواغلها وهمومها، وإلا حرم من بركات شيخه واهتمامه به، وكان مشغولاً بما فيها عما هو متجه إليه، وطالب له، والحظوظ والشواغل صارفة للهمة والإرادة عن المقصود الأسمى الذي جاء ينشده من وراء التربية السلوكية.

وحتى في درس التربية الحديثة لو شغل التلميذ بغير ما هو فيه لا يستطيع التحصيل والاشتراك في الدرس اشتراكًا فعّالاً، فما بالنا بمريد جاء طالبًا للتصفية والتهذيب النفسيين، لا شك أن الحظوظ الدنيوية والأهواء صارفة للسالك عن متابعة شيخه والحضور مع توجيهاته كما أنها من باب أولى صارفة للسالك عن ملاحظة باطنه ملاحظة دقيقة، وللملاحظة الباطنية أهمية بالغة في التربية الصوفية، ومن هنا فليست تلك الآداب إفناء لشخصية المريد مع شيخه بقدر ما هي إحياء له مع ذاته.

٣ـ السمع والطاعة وعدم المعارضة

الطالب الصالح في نظر التربية الحديثة ومن وجهة نظر الأستاذ الأمريكي «فيليب فينكس» هو الذي لا يقوم بأية مقاومة لمطالب المدرس أما الطالب الفاسد فهو الذي يثور دائمًا ويفشل في أن يستجيب لما يقدم له من تعليمات ويقول: ويعتبر المدرس سلطة يجب على التلميذ أن يتبنى أغراضها على أنها حقيقة وصحيحة وللمدرس حق السيطرة على تلاميذه الذين يتوقع منهم الاحترام والخضوع والطاعة عن طيب خاطر[1].

نقول هذا حتى لا تتهم التربية الصوفية بالاستبداد أو العمل على إفقاد المريد

(١) فينكس: فلسفة التربية: ٧٨.

شخصيته وذاته عندما نسمع الصوفية يؤكدون على ضرورة السمع والطاعة وعلى الحرص الكامل عليهما إذ يقول الحسن البصري: إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول ولا تقطع على أحد حديثه[1].

وأما سيدي أحمد بن أبي الحسين الرفاعي (٥٧٠هـ) فيرى أن: من علامات إقبال المريد ألا يتعب شيخه في تربيته بل يكون سمعيًا مطيعًا للإشارة، وأن يفتخر به شيخه بين الفقراء لا أن يفتخر هو بشيخه[2]، وأن يكون السماع عن رضى وقبول وحب لما يقوله الشيخ على حد ما جاء في قول علي بن محمد وفا[3].

ولا يريد رجال القوم أن يكون السماع لقول الأستاذ بلا دراية، ولا أن يكون القبول بلا استظهار من المريد وإلا كان ملزمًا لأن يسمع شيئًا لا يعيه، ويقبل توجيهًا لا يفقهه، ولذا اشترط ابن وفا أيضًا أن يقف السالك على أمر أستاذه مع عدم الالتفات عنه[4]، والوقوف على الأمر لا يعني القصد التربوي من وراء القول الملقى على المريدين، وإذا كان السماع على هذا النحو المفهوم والمقصود، والذي عرفت مراميه التربوية وجب الانصياع له والاستجابة لما فيه والموافقة لحكمه.

وليست الاستجابة المطلوبة للقول دون العمل، وإنما على المريد أن يكون متيقظًا لكل ما يصدر عن الشيخ من حكم وتوجيهات، وأن يكون مراقبًا لأفعال شيخه كذلك ليقتدي به فيها اقتداءً حسنًا؛ لأن من لم ينتفع بأفعال شيخه لم

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين: ج٢: ٢٣١.
(٢) طبقات الشعراني: ج١: ١٢١، ٦٩، ٤٩٠، ج٢: ٣٠، ٤٤، ٤٧.
(٣) المرجع السابق.
(٤) نفسه.

ينتفع بأقواله مثلما قرر أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي (٢٥٨هـ)[١] وعلة ذلك أن الموافقة في القول والعمل تصحح من حال السالك، وتداوي من علله وأمراضه، وإذا كان الأستاذ كالطبيب وجب على المريض السالك أن يستجيب ووافقه في أقواله وأفعاله موافقة عن فهم ومعرفة لمغزى كل منهما التربوي، وسلك كما سمع أو رأى جاز أن يطابق الشيخ في معارفه، وإذا أهمل أو خالف القاصد في قول أو فعل لا يحصل له شفاء ولا يتوهم المعاني الموجودة لدى العارفين على حد قول كل من سيدي إبراهيم الدسوقي وعلي بن وفا.

وإذا كان الأمر كذلك فليحذر المخالفة في أي جانب من الجوانب، وكم أكد المشايخ على تلك النقطة، وأخبرنا أبو بكر بن حامد الترمذي صاحب أحمد بن خضرويه أن من لم ترضه أوامر المشايخ وتأديبهم فإنه لا يتأدب بكتاب ولا سنة[٢] وجاء في كتاب «أسرار التوحيد» أنه لا تجوز المخالفة في أي شيء من الاعتقادات أو الحركات أو السكنات ولو كان المريد على مذهب الشيخ في الفرعيات لكان أولى[٣] حتى لا تكون هناك مخالفة على أي وجه من الوجوه في عقيدة أو شريعة بتصريح ولا بتأويل في ظاهر أو باطن، فهي سم قاتل لصفاء المريدين وسلوكهم.

وتبدو هنا من بين الأقوال التي يحملها هذا اللون من الآداب حقيقتان:

إحداهما: أن الصوفية عندما دققوا في السمع والطاعة والموافقة النظرية والعملية، وحذروا من المخالفة وضعوا أمام عيونهم حال المريد في بدايته وأنه مليء بالعلل والآفات، وأنه طالب ومتوجه إلى الله ليكون معه في صلة نقية، وليلقاه

---

(١) نفسه.

(٢) السلمي: طبقات الصوفية.

(٣) ابن المنور: أسرار التوحيد: ٣٧.

في طاعته وعبادته بقلب سليم، والنفس في بداية السلوك والمجاهدة شديدة النفور، عنيدة الانصياع، والشيخ طبيب يداوي هذه العلل والآفات فعلى المريض أن يستمع لنصح طبيبه في هذا المضمار.

وأما الحقيقة الثانية: التي ظهرت من عبارة أبي بكر الترمذي بالذات فإنها تكمن في أن الشيوخ كانوا يخلصون المريد من عللهم وأمراضهم، وأنهم كانوا يؤدبونهم نفسيًّا وخلقيًّا ليستقيم حالهم، ويستطيعوا العمل بآداب الكتاب والسنة على وجه صحيح، وبلا عوارض وعقبات من داخلهم أو خارجهم، وكأنهم ينظفون الطرق أمام المريدين ليعملوا عملاً مستقيمًا في ظاهره، نقيًّا مخلصًا في باطنه، ومن فعل ذلك وجب على كل سالك أن يستجيب له لأن مقدمات العمل ضرورية إذ لا يتم إلا بها.

وأخيرًا فإن أحاديث السمع والطاعة التي وردت على لسان رسول الله ﷺ كثيرة نسوق منها بعضها لنرى كيف يكون أدب التابع مع المتبوع وسرعة الاستجابة والامتثال، أخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عبد الله بن رواحة أتى النبي ﷺ ذات يوم وهو يخطب فسمعه وهو يقول «**اجلسوا**» فجلس مكانه خارجًا عن المسجد حتى فرغ النبي ﷺ من خطبته فبلغ ذلك الرسول ﷺ فقال له: «**زادك الله حرصًا على طواعية الله، وطواعية رسوله**»[1] وأخرجه البيهقي بسند صحيح.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عطاء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يخطب فقال للناس: «**اجلسوا**» فسمعه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وهو على

(١) كنز العمال: ج٧: ٥٢، ٥٥، والإصابة ج٢: ٣٠٦.

الباب فجلس فقال: «**يا عبد الله ادخل**»[1] وهدم رجل من الأنصار قبة له عندما علم أن رسول الله ﷺ أعرض عنه بسببها، أخرجه أبو داود عن أنس وكذا أخرجه ابن ماجه، وروى أبو إمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ: «**من علَّم عبدًا آية من كتاب الله فهو مولاه ينبغي له ألا يخذله ولا يستأثر عليه فمن فعل ذلك فقد قصم عروة من عرى الإسلام**».

٤ـ ألا يتقدم المريد على شيخه في علم أو فعل

إذا كان الشيخ كما سبق لك أن رأيت علمًا وسلوكًا وخبرة فيجب أن تكون علاقة المريد به تبعًا لحال الشيخ ومنزلته العلمية التي رأيناها في إعداده، والتي نلمسها في درجته ولا يرى منزلة شيخه، بل يجب له كل منزلة عالية، ويتمنى للشيخ غزير المنح، وغرائب المواهب، وإذا جاء المريد إلى مجلس الشيخ فيلزم السكوت ولا يقول شيئًا بحضرته، ولا يرفع صوته، ولا ينبسط بكثرة الكلام أو الضحك أو يذكر لنفسه منقبة أمام أستاذه، وإن عرضت مسألة بين يدي المربي فيسكت، ويتركه يجيب، وإن قصّر الشيخ وكان لديه فيها فصل خطاب فلا يرد، ويحمد الله على ما أولاه من نعم ويفضل الصمت والسكوت تحت رأي أستاذه.

ويستغفر الله إن بدرت منه فلتة لفظ، وإذا ظهر على الشيخ أثناء الإجابة على تلك المسألة أو في أي موقف آخر ما يكره في الشرع استخبره المريد عن ذلك بضرب المثل أو الإشارة، ولا يصرح به لئلا ينفر منه أستاذه، والأفضل أن يتأول للشيخ في الشرع، فإن لم يجد له عذرًا سريعًا استغفر له، ودعا للأستاذ بالتوفيق والعلم والتيقظ والعصمة، ولا يخبر أحدًا بما حدث من الشيخ خوفًا

---

(١) المراجع السابقة نفسها.

التشنيع عليه، ومن السلامة في ذلك أن يعتقد أن ما حدث ربما كان رخصة شرعية لعذر لدى الشيخ لا يعلمه إلا هو، ويحذر تمامًا أن يخالفه في حكم أو يخرج عن رأيه.

ولا ينبسط أو يتكلم إلا في حال الضرورة، وبدستور من شيخه أي بإذن منه، ويرى الجيلاني أن هذا الإذن بالكلام يكون في حضور الشيخ بالتصريح اللفظي، وأما إن كان الشيخ غائبًا فيدعو بأن يكون الله راضٍ عما يقول، ومهما وصل من علم فلا يخاف هذه القواعد ولا يظهره على أستاذه، ويظهر أستاذه على أنه أعلم منه مراعاة لحرمة الشيخ على غرار ما فعل ابن أخ لأبي يزيد البسطامي، كان يقوم بخدمة الشيخ فلما بلغ مبلغًا عرف ما يجري على قلب أبي يزيد قال: يا رب استرد مني هذا فإني أرى ذلك ترك الحرمة[1]، وأيضًا كما جاءت هذه الآداب على لسان الجيلاني والدسوقي وغيرهما[2].

ويعلل السهروردي صلة هذا كله بالتربية فيقول: إن رفع الصوت تنحية جلباب الوقار، والحديث أمام الشيخ إسقاط للحرمة، فإذا روعي الصمت والسكوت في الحرمة تحقق الوقار، وإذا تحقق سكن القلب وعقل اللسان ما يقول، وعلم كيفية الخطاب والعبارة المناسبة[3]، وكان الوقار سببًا في التفكير والتذوق لما يجري من قول وحال، والكلام والانبساط والتجهم على الشيخ في الحديث تخرج المريد عن هذا الوقار فتضيع عليه تلك الفوائد، كما تضيع بسبب التجرؤ على الشيخ بالإقدام والدخول عليه في خلوته، أو بسط السجادة أمامه في غير وقت الصلاة، أو التقدم عليه في المسير، أو التحرك حال السماع وترك ما هو

---

(١) مناقب أبي يزيد البسطامي: ٥١.

(٢) انظر: الجيلاني: الفتح الرباني ١٦٦، والغنية: ج٢: ١٤٥، ١٤٦، والسهروردي: عوارف المعارف ١٩٦، ٢٠٢، الشعراني: الطبقات الكبرى ج١:

(٣) نفس المصادر السابقة.

أولى من الاشتغال بالذكر والتفكير والإنصات والتأمل.

وباختصار على المريد أن يلتزم الأدب في الحديث والفعل مع شيخه كي يتحقق بالوقار الذي هو علة النفع بالتأمل واختيار العبارات اللائقة، ومن ثم فكل أدب من الآداب نيطت به حكمة تربوية حسبما رأيت من كلام السهروردي.

وإننا لنجد جذور هذه الآداب واضحة تمام الوضوح في النصوص الدينية المختلفة، تلك النصوص التي تربى عليها صحابة رسول الله ﷺ، وتأدبوا عليها تأديبًا قويًّا، واستجابوا لها استجابة نفسية وقلبية، قولية وفعلية فعندما ارتفع صوت أبي بكر وعمر أمام رسول الله ﷺ حول تأمير القعقاع بن معبد على وفد قدم على رسول الله كما رأى أبو بكر، أو تأمير الأقرع بن حابس كما هو رأي عمر، وعندما كان بعض الصحابة يضحون قبل رسول الله ﷺ، أو يصومون قبل صيامه، أو يرفع ثابت بن قيس صوته عند النبي صلوات الله وسلامه عليه نزل قوله جل جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

وبعد نزولها أقسم عمر وأبو بكر ألا يرفعا صوتهما عند الرسول ﷺ أبدًا فكان حديثهما سرًّا، وبكى ثابت بن قيس عند نزول الآية خشية أن تكون فيه وحده لأن صوته كان جهورًا، ودخل مكان فرسه وأمر زوجته ألا تفتح عليه الباب حتى يتوب الله عليه، فأخبر عاصم بن عدي رسول الله بذلك فقال له: «**اذهب فادعه**» فدعاه وسأله النبي ﷺ: «**ما يبكيك؟**» فقال: أنا صيت وأخاف أن تكون الآية نزلت فيَّ فقال رسول الله ﷺ: «**أما ترضى أن تعيش سعيدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة**» فقال: قد رضيت ببشرى رسول الله ولا أرفع صوتي أبدًا فنزل قوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ

رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [الحجرات: ٣].

وقد استشهد ثابت في حرب اليمامة، يعلق الكلبي على الآية الأولى فيقول: الآيـــة عامة ومعناها لا تسبقوا رسول اللـــه بقول ولا فعل حتى يكون هو الذي يأمـــركم بـــه[١]، وهـــذا القول شبيه تمامًا بم قالـــه الصوفية وبما ساروا عليه مع شيوخهم الذين ورثوا علم الشريعة وأحوالها وبلغوها فقاموا مقام النبوة في الدعوة والهداية.

وجـــاء عبد الرحمن بن سهل، وحويصة ومحيصة أبناء مسعود ليكلما رسول اللـــــه ﷺ في مقـــتل عبد اللـــه بن سهل الذي قتل في النخل فبدأ عبد الرحمن بالحديـــث مـــع النبي وكان أصغر القوم سنًّا فقال الرسول ﷺ : «**كبر الكبر**»[٢] وأعطاهم الرسول دية القتيل من مالـــه.

وأخـــرج ابن عساكر عن أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلاً أسبل ثوبه – أي أطالـــه – فقال له: ارفع إزارك، فرد عليه الرجل وقال: وأنت يا ابن مسعود ارفـــع إزارك فقـــال لـــه عبد الله: إني لست مثلك، إن بساقي حموشة أي دقة ونحافة، وأنا أؤم الناس فبلغ ذلك عمر فجعل يضرب الرجل ويقول: أترد على ابن مسعود؟[٣].

وحدث الليث عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول اللـــه ﷺ: «**تجاوزوا عـــن ذنب السخي، وزلة العالم، وسطوة العادل فإن اللـــه تعالى أخذ بأيديهم كلما عثر عاثر منهم**» ومثل هذه النصوص تدل على لزوم الصمت والسكون وعدم الرد والتجاوز عن زلات العلماء والكبار وأهل الفضل ممن حباه اللـــه بالعلم والعمل.

---

(١) السهروردي: عوارف المعارف: ١٩٨.

(٢) أخرجه البخاري عن رافع بن خديج وسهل بن أبي خيثمة، حياة الصحابة ج٣: ٤، ٥.

(٣) كنـــز العمال: ج٧: ٥٥، ج٥: ٥٥، ج٧: ٧٨.

وأما عدم التقدم عليهم في المجلس أو الأفعال عامة فهو ما نراه من قول الرسول صلوات الله عليه عندما مشى أبو الدرداء أمام أبي بكر فقال له الرسول: «**تمشي أمام من هو خير منك في الدنيا والآخرة**» وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري وهو أمير أنه بلغني أنك تأذن للناس جمعًا غفيرًا فإذا جاءك كتابي هذا فابدأ بأهل الفضل والشرف والوجوه فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للناس[1]، وأخرجه الدنيوري عن الحسن، وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عبد الواحد بن عون الدوسي قال: بينما عمرو بن الطفيل الدوسي عند عمر إذا أُتي بطعام فتنحى عنه الطفيل فقال عمر: ما لك تنحيت لمكان يدك؟ قال: أجل، قال: لا والله لا أذوقه حتى تسوطه بيدك فوالله ما في القوم أحد بعضه في الجنة غيرك[2].

٥ـ جواز المراجعة للفهم

فهمنا من الآداب السابقة ضرورة السكوت والصمت والطاعة لأوامر الشيخ، وعدم التقدم في قول أو فعل، ولكن هل معنى هذا أن المريد لا يراجع شيخه في أمر ما، أو يجوز للمريد أن يسأله عن مبهم أو مشكلة استغلق عليه؟.

لقد وجه هذا السؤال إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي (٣١١، ٣١٣هـ) فقيل له: إذا سمع إنسان شيئًا من العلم فسكنت نفسه إليه، ولكن عنده اعتراض في نفسه هل يسكت أو يعترض حتى يتبين له الحق فيعمل به؟ فقال: لا يسكت بل يعترض حتى يتبين له الحق[3]، ويفسر الشعراني هذا فيقول: بأن يقول لشيخه لا أفهم هذا ومقصودي أن أفهمه لا أن أرد الكلام جملة[4]، وكذا إن استغرق شيء من الحال يحب أن يستفسر عنه جاز أن

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج١: ٨٣.
(٤) نفس المصدر.

يستكشف بسؤال من الشيخ[1]، إن سكت الشيخ و لم يجب على ما انبهم لدى مريديه ببصيرته، وذلك لأنه إن سكت تشويش قلبه بالأمر المستغلق، أو شغل بالمبهم فينصرف بذلك عن مقصوده في التربية، فالأولى له أن يسأل ليستريح ويطمئن ويأخذ فيما هو فيه من السلوك والتدرج.

وأيضًا فإن جواز المراجعة بلطف وأدب لا تخل بأدب المريد مع أستاذه علاوة على أنها لا تجعل المريد كمًّا مهملاً يطيع ما لا يسلم به، ويستجيب لما لا تتضح معالمه وحكمته أمام عقله وقلبه، وهي تظهر مشاركة المريد لأستاذه بالسؤال أو الرأي في طريقة التربية وإن كانت تلك المشاركة محدودة وضيقة نظرًا للمجال التربوي الذي يعمل فيه الشيخ والمريد معًا.

وتدلنا الأخبار الصحيحة أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يكثرون السؤال على رسول الله حتى نهوا عن ذلك، فلما انتهوا حدثنا أنس بن مالك قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نستمع، وفيه جواز السؤال فيما نحتاج إليه ضرورة في سلوكنا أو عقيدتنا أو شريعتنا ولذا يقول الرسول: «**سلوني**» أي عما تحتاجون إليه أما ما لا ضرورة لكم فيه فلا، ولابد أن يكون السائل عاقلاً يعرف فنون الأدب في السؤال، والمهم منه، ويعرف حسن المراجعة فإنها أسباب عظم الانتفاع.

وروي بسنده عن أبي سعيد الخدري أنه لما أتى وفد عبد القيس إلى النبي ﷺ قالوا[2]: يا نبي الله جعلنا الله فداك ماذا يصلح لنا من الأشربة؟ فقال: «**لا**

---

(١) عوارف المعارف: ١٩٩.

(٢) النووي: صحيح مسلم: ج١: ١٤٤ ن ١٦٥، الدباء: القرع، الحنتمة: واحدة الحنتم الجرة الخضراء، أو شجرة الحنظل، الموكي: المربوط فوه بالوكاء وهو الخيط الذي يربط به، أقرب الموارد ج١: مادة دب/خ ن ت م.

تشربوا في النقير» قالوا: يانبي الله جعلنا الله فداءك أو تدري ما النقير؟ قال: «نعم الجذع ينقر وسطه، ولا في الدباء ولا في الختمة وعليكم بالموكى» وتظهر من خلال عبارات الحديث التأدب في السؤال، وتقديم الاعتذار بين يدي المسألة.

ويقول الإمام النووي: إن الحديث يبين أنه لا عتاب على طالب العلم والمستفتي إذ قال للعالم أوضح لي الجواب ونحوه، وفيه جواز مراجعة العالم على سبيل الاسترشاد والاعتذار ليتلطف له في جواب لا يشق عليه[1]، ولما تغيب النبي ﷺ عن بعض الجالسين معه وقام أبو هريرة وتسور البستان ليبحث عنه فوجده ثم أعطاه النبي نعليه وقال: «أخبر من لقيته خارج السور يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة» قال أبو هريرة: فكان أول من لقيت عمر فأخبرته فضربني بين ثديي فشكوت إلى رسول الله بعد رجعتي فقال لعمر: «ما حملك على ما فعلت؟» قال لرسول الله ﷺ: إني خشيت أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون، قال رسول الله ﷺ: «فخلهم».

وفي الحديث كما يرى النووي مشروعية جلوس العالم لأصحابه ولغيرهم من المستفتين يعلمهم ويفيدهم ويفتيهم، وفيه إشارة من بعض الأتباع على المتبوع بما يراه مصلحة، وموافقة المتبوع له إذا رآه مصلحة ورجوعه عما أمر به بسببه، وفيه اهتمام الأتباع بحقوق متبوعهم والاعتناء بتحصيل مصالحهم ورفع المفاسد عنه[2]، وإذا جاز مراجعة النبي ﷺ وسؤاله فمن باب أولى يجوزان على الشيخ.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) صحيح مسلم: ج١: ١٩٨ - ٢٠٣.

٦ـ اطلاع الشيخ على ما لدى المريد

وعلى المريد ضرورة أن يطلع شيخه على كل ما لديه ظاهرًا وباطنًا، ويهتف الجيلاني على سمع المريد مناديًا: يا غلام اجعلني مرآة قلبك وسرك ومرآة أعمالك، أدنُ مني فإنك ترى في نفسك ما لا تراه من البعد عني[١]، لا يستحي من كشف ما لديه أيًّا كان حسنًا أو عيبًا لأن الأستاذ كالطبيب والمريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب[٢] لضرورة التداوي حسبما صرح سيدي أبو العباس المرسي، وما دام الأمر كذلك فكم يحذرون من كتمان الحال على الطبيب المعالج للنفوس والقلوب، ومن إخفاء السر والعلن عليه[٣] على أن يكون له دون غيره.

وعلى المريد أن يتخير أفضل الأساليب للتعبير عما يقوله الشيخ فإن كان ما لديه مما لا يستحي منه ذكره صراحة وإلا ذكره إيماء وتعريضًا، كما يتخير أفضل المناسبات الزمانية والمكانية فلا يتهجم على الشيخ بل ينتظر وقتًا يكون الشيخ فيه مستعدًّا للحديث معه[٤] فيحدثه فيما يجب أن يحدثه فيه، وإنما يقوم بالإفصاح عما في داخله أو خارجه لشيخه لأن المريد متى انطوى ضميره على شيء لا يكشفه للشيخ يصير على باطنه منه عقدة في الطريق، وبالقول مع الشيخ تنحل العقدة وتزول، ونظرًا لأن الشيخ علمه أوسع، وبابه المفتوح إلى الله أكبر فإن المريد إذا كاشفه بوقائعه فإن كانت من الله تعالى يوافقه ويمضيها له، وإن كان فيها شبهة تزول شبهة الواقعة بطريق الشيخ.

ويكتسب المريد علمًا بصحة الوقائع والكشوف، أو لعل المريد في واقعته يخامره كمون النفس فتشتبك كمون الإرادة بالواقعة منامًا كان ذلك أو يقظة،

---

(١) الجيلاني: الفتح الرباني: ٢٦.
(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى: ٢: ١٤.
(٣) الجيلاني: الغنية: ج٢، ١٤٦.
(٤) عوارف المعارف: ٢٠٢، ٢٠٣، وطبقات الشعراني ج٢: ٢٦.

ولا يقوم المريد باستئصال شأفة الكامن في النفس، وإذا ذكره للشيخ فإن كان من النفس بَيَّنَهُ الشيخ ويزول، وإن كان من الله يتضح ببرهان الشيخ، فالمربي هو الضوء الباهر الذي يكشف ويميز بين ما هو من عند الله فتحًا ووهبًا، لبراءة الشيخ من هوى النفس وسلطانها فإذا حكم حكم بنور الله وحده، وفرق بالبرهان الذي منحه الله له، وعندئذ تبرأ ساحة المريد مما بها، ويتحمل الشيخ عنه؛ لقوة حاله وصحة إيوائه إلى جانب الحق وكمال معرفته[1]، وصدق إرشاده ونصحه، وغني عن الذكر ما ثبت من صحابة رسول الله عندما كانوا يشكون حالهم إلى الرسول ﷺ.

٧ـ الاحترام والتوقير

بعد أن فرغنا من الآداب المؤثرة في التربية بصفة مباشرة نأتي إلى آداب المعاملة اللائقة بالشيخ جزاء على ما يقوم به من توجيه ورشد ونلتقي هنا بضرورة مراعاة الحرمة التي تناسب منزلة الشيخ، وكونها أدبًا هامًّا من آداب المريدين مع شيوخهم، والحرمة شاملة لتوقير الشيخ وإجلاله، واحترامه وإنصافه من النفس ومن الإخوان، بأن يأتي معه على نفسه وعلى إخوانه، وأن يحفظ للشيخ غيبته حاضرًا وغائبًا، قريبًا وبعيدًا وأن ينظر إليه بعين الإكبار والإعجاب في علمه وسمته، وخلقه وبركته، ومن فقد مراعاتها فقد فاته خير كثير من بركات الشيوخ أو حرم فوائدهم وبركات نظرهم ولا يظهر عليه من أنوارهم شيء[2].

كما قال أبو علي الثقفي (٣٢٨هـ) ومن تركها ابتلي بالدعوة الكاذبة وافتضح[3] بها عند إبراهيم بن شيبان القرمسيني (٣٣٠هـ) أو نزع الله

---

(١) المرجع السابق.

(٢) السلمي: طبقات الصوفية ٨٨، ٩٩، ٩٧، ٩٩.

(٣) نفسه.

حرمته من قلوب الخلق فلا تراه إلا ممقوتًا وإن حسنت أخلاقه وصلحت أحواله[1] حسبما أضاف أبو الحسين علي بن هند الفارسي المتوفّ بعد (٣٤١هـ) على عكس من أكرمه الله بها ومراعاتها مع الأكابر فإنه توضع حرمته في قلوب الخلق.

ويذكر ابن عربي أن من صحب شيخًا ممن يقتدى بهم فلم يحترمه فعقوبته فقدان وجود الحق في قلبه، والغفلة عن الله، وسوء الأدب عليه .. فإن وجود الحق إنما يكون للأدباء، والباب دون غير الأدباء مغلق، ولا حرمان أعظم على المريدين من عدم احترام الشيوخ[2]، وإن سقطت تلك الحرمة من النفس أو من القلب فلا يقعد عنده ساعة واحدة فإنه لا ينتفع به ويتضرر، وهذه الحرمة باقية ممتدة حال الموت والحياة لأن الأولياء إنما ينقلون من دار إلى دار فحرمتهم أمواتًا كحرمتهم أحياء، والأدب معهم بعد موتهم كالأدب معهم حال حياتهم فلا يعرض عنه بأية صورة من الصور، ولا يعاشر الولي إلا بالأدب في كل حال[3].

كما عند الشيخ أبي المواهب الشاذلي، ومن باب الحرمة مراعاة خطرات الشيوخ في جزئياتها ولا يستحقر كراهة الشيخ ليسير الأمور وخطيرها اعتمادًا على حسن خلقه، وأن يعمل على إرضاء الشيخ ولا يسخطه، وأن يصبر على جفاه لجواز أن يكون ذلك امتحانًا له من شيخه أن ينظر في نفسه لعله فعل ما يغضبه، ولا يتكلف معه أبدًا[4].

وإنما كان للحرمة مثل هذا الخطر والتأثر على السالك لأنها تبني الهيبة في

---

(١) نفسه.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية: ج٢: ٤٨٣، ٤٨٢.

(٣) الشعراني: الطبقات الكبرى ح٢: ٦٥، ٢٤، ج١: ١٥١ نفح الطيب ج١: ٢٤٨.

(٤) المراجع السابقة نفسها.

النفوس وتبعثها، ويستشعر المريد بصفة دائمة تأثير الشيخ عليه فتظل النفس مردوعة خائفة واقعة تحت سلطان القوة والهيبة التي للمربي فإن سقطت الحرمة ذهب التأثير، وذهب الانزجار والارعواء، فرجعت النفس إلى عادتها، وتبلدت بواعثها وفترت همتها، وهدأت إرادتها وانتابها الخمول بعد فقدان سلطان الشيخ وحرمته عليها.

ومن أجل ذلك فإن درجة الحرمة وأدبها لم يكن مقصورًا على الصوفية، وإنما كانت تلك عادة شاملة لطلاب العلم في كل عصر وفي كل فن فقد حدثنا سفيان الثوري عن أبي قيس، قال: رأيت إبراهيم النخعي الكوفي التابعي غلامًا محلوقًا يمسك لعلقمة بالركاب يوم الجمعة[1].

وحدث خيثمة بن عبد الرحمن التابعي الذي أدرك ثلاثة عشر رجلاً من الصحابة أن إبراهيم قبَّل يده.

وقبَّل الآخر يده، وقال عاصم بن أبي النجود الأسدي: ما قدمت على أبي وائل الضحاك بن مزاحم (١٠٥هـ) من سفر قط إلا قبَّل يدي[2].

وكان أبو وائل إذا غيب بالرستاق فقدم ولقي عاصمًا أخذ بيده فقبَّلها[3].

ولما قدم عبد الرحمن الأوزاعي (١٥٧هـ) استقبله سفيان الثوري (١٦١ هـ) بذي طوى، وخل سفيان رأس بعير الأوزاعي من القطار، ووضعه على رقبته فكان إذا مر بجماعة قال الطريق للشيخ[4].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٦: ١٩٠.
(٢) نفسه: ج٦: ٢٢٢، ٢٣٠.
(٣) نفسه.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٢: ٣١٠.

وكان ثمامة بن الأشرس المتكلم يقوم لأبي الهزيل العلاف ويأخذ ركابه حتى ينـــزل فسئل عن ذلك فقال: أبو الهذيل أستاذي منذ ثلاثين سنة[1].

وتســـابق ابـــنا المأمون واختلفا على حمل نعلي يحيى بن زياد الفراء النحوي فقســـمها بيـــنهما حمـــل كل واحد منهما نعلاً[2] وذلك كلـــه حرمة للعلماء واحترامًا للعلم وأهلـــه طبقًا لقول رسول اللـــه ﷺ : «**ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**».

وأخـــرج الطبراني عن أبي أمامة رضي اللـــه عنهما قال: بينما رسول اللـــه ومعـــه أبـــو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إذ أتي بقدح فيه شراب فناولـــه رســـول اللـــــه أبا بكر فقال له: أنت أولى يا رسول اللـــه .. مرتين، فقال: «**اشرب فإن البركة مع أكابرنا فمن لا يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا**»[3].

وكان عبد اللـــه بن مسعود صحابَ الوسادة والسواك والنعلين والطهور في السفر وكان يلبس الرسول ﷺ النعلين ويمشي أمامه بالعصا[4].

---

(١) ابن النديم: ملحق الفهرست: ٣٠.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: ج١٤: ١٥٠.

(٣) حياة الصحابة: ج٣: ٤.

(٤) ابن الجوزي: سنة الصفوة: ج١: ١٥٥، ١٥٦.

الفصل الثالث

مبالغات يجب ردها

في نهاية المطاف مع التربية الصوفية، وبعد الحديث عن الشيخ والمريد، وبعد أن انتهينا من آداب المريد مع شيخه نأتي إلى أفكار لها خطرها تتصل بعلاقات المريد والشيخ، وكان الممكن أن ندونها مع الآداب السابقة لكننا آثرنا أن نفردها بحديث خاص لأهميتها في الشطح، ولشدة خروجها عن الآداب الإسلامية في علاقة المتعلم بالمعلم، والمريد بالأستاذ، وعن الصلة الروحية التي نادى بضرورتها مشايخ الطريق، تلك الصلة التي اتسمت بالاعتدال والموافقة لحال الصحابة مع رسول الله ﷺ ومع بعضهم وتتركز تلك الفكرة الخارجة حول المغالاة الشديدة في وصف الأستاذ والإفراط في ارتباط المريد به.

الشطح في ذات الشيخ

يصفه ابن وفا بأنه وجه الحق أو عين الحق، أو مظهر روح الأنبياء، فهو وجه من حيث أنه واجه به المريدين والطالبين والمسترشدين، وهو عين الحق التي ينظر بها إلى القاصدين، وهو مظهر سر الحق الذي نشهد السر من خلاله والنور من صفائه، وهو مظهر روح الأنبياء لأننا نتصل بهم من وراء فنائنا فيه، ويقول في ذلك: إذا عرفت الواجد للحق من حيث هو واجد للحق فهو وجه الحق الذي واجهك به فالزم طاعته، وكن من الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون[1].

فعندية الشيخ عندية للربوبية البادية من وجهها في وليها، وتلك العندية من الشيخ عبارة عن الاقتراب منه ومعرفته بأسراره وإلهاماته والمكاشفة على ما لديه

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٤٨.

مـــن علوم، ومطالعة تجلياته الصفاتية التي حباه اللـــه بها، وإذا كشف الغطاء عن المـــريد فرأى شيخه على تلك الحالة، واقترب منه في تلك الصفة المتجلية اتضح لـــــه أنه أمام مظهر عظيم من المظاهر الصفاتية التي نصبتها الذات الإلهية لهداية العـــبد فعندئذ عليه أن يلزم ذلك المظهر، وأن يقدم لـــه فروض الولاء بما به من ســـر، ولما يحمل من غيب ومعارف وبالتالي فإن المريد لا يقترب من ذات الشيخ لشيخه، إنما لقربه وتجليات الحق عليه.

ولما كان كذلك فإن ابن وفا يعلن على جمهور المريدين قائلاً: فضل مرشدك إلى اللـــــه على كل ما ترجوه من إمداده كفضل اللـــه على عباده، فافهم فإن مرشـــدك إلى الحق هو عين الحق التي ينظر بها إليك، ووجهه الذي يقبل به عليك فاعرف والزم وانظر ماذا ترى؟[1].

فالنظر إلى الشيخ والوقوف عنده ومعه أعظم من كل مد نطلبه من الحق لأنه العـــين التي يطلع المولى بها علينا ويرانا بأفعالنا وخصالنا وإقبالنا منها، وهو الوجه الـــذي إن أقبل علينا كان دلالة الرضى الإلهي، وإن تولى أظهر السخط والغضب على من تولى عنه، وتبعًا لهذه الأفكار فإنه يترتب عليها أن يكون للشيخ الواصل هـــيكل يبدو، وحقيقة تكمن، والهيكل الظاهر بشري، والحقيقة الباطنية ربانية، والقالب المتحرك المحسوس آدمي، والمعاني السرية الرقيقة نورانية، فهم في الحقيقة أرواح مقدســـون يتجلون في بشرياتهم فمن نظر إلى ظاهرهم تحير، ومن نظر إلى نور بواطنهم تبصر[2].

إلى هـــنا يصـــل الشيخ علي بن وفا إلى ضرورة النظر والمطالعة إلى بواطن الشـــيوخ ليتبصر بعلمها، وينهل من أسرارها ويشهدها قبل أن يشهد من جلاها

---

(١) نفسه ج٢: ٥١.
(٢) نفسه.

فلن يشهد الحق جل جلاله إلا من خلال مجلاه ومظهره في القطب الآدمي، وإذا تحدث المجلي أو الشيخ فلينصت المريد لصوت الحق حال كونه صادرًا من خلق، ولكلمات الله صادرة من عبد الله، وإذا دعا فلن يكون دعاؤه كدعائنا، فإن كلامه، وقوله قول الله.

فإذا ما سأل الله عنه وعن ذاته فكيف يرد دعاء صدر عن ذاته[1]

هكذا ينشد جلال الدين الرومي في المثنوي في الدفتر الأول مبينًا أن الدعاء من العارف الواصل والرجاء منه لله هو في حكم رجاء الحق من ذاته بدليل أن الله تعالى يقول في الحديث القدسي: «**كنت له سمعا وبصرًا ولسانًا ويدا**» وفي الآية القرآنية: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧].

المغالاة في علاقة المريد بالشيخ

وما دام الشيخ على النحو الذي ذكره أنصار الإفراط فإنه يلزم منه أن ينسحب ذلك على العلاقة القائمة بين المريد وشيخه، وأن ينظر إليها على أنها صلة ليست بين مرشد وطالب، ولا بين معلم ومتعلم ولكن بين سر ربوبي وبين مخلوق بشري يقترب من هذا السر ليستفي منه، وليستضيء بهديه ونوره وتعتبر تلك العلاقة معبرًا لا يمكن تجاوزه لمن يحاول الوصول إلى الله.

وإنك لن تغترف من عذوبة السيل حتى تذوق من قطراته التي أسكبها على رأسك لتغسل عنك أدرانك الظاهرة والباطنة كي تصل إلي بلا أنت، فتظهر هناك على الشاطئ قبل أن تدخل بيتي مصليًا لعظمتي، وخذ من ماء النهر قبل أن تأتي إلى المنبع والمصدر وتحقق بمرادك في بعين أستاذك[2] قبل أن تتحقق بمرادك في مرادنا وقبل أن تفنى عنك بنا، وتبقى في شهودنا.

---

(١) قاسم غني: تاريخ الصوفية في الإسلام ٣٢٣.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٣٠.

ويقول ابن وفا: من آثر أستاذه على نفسه كشف الله تعالى له حظيرة قدسه، ومن نزه حضرة أستاذه عن النقائص منحه الله تعالى بالخصائص، ومن احتجب أستاذه عنه طرفة عين أوبقه الله في موابق البين، وما بين المريد وبين مشاهدة أستاذه إلا أن يجعل مراده بدلاً من مراده، ومن لم ينبهه أستاذه لم يجل أبدًا عروس الوداد، تبًّا لمريد جمع بطبعه عن الدليل، لقد ضل سواءِ السبيل، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور[1]، فقد جعل التحقق الرباني متوقفًا تمامًا على التحقق بالشيخ.

مراحل تحقق المريد بالشيخ

وإذا كان الشيخ مظهرًا للحق، أو عينًا له فعلى السالك ألا يصل إلى الذات قبل أن يجتاز مظهرها وسرها البشري، وعليه أن يمر بمراحل يتحقق فيها بشيخ تحققًا سلوكيًّا وعرفانيًّا، ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المغالين قد جعلوا مراحل التحقق بالشيخ نفس مراحل التحقق بأسرار الربوبية ابتداء من الإرادة والصدق والتريض إلى الفناء في الشيخ إلى التحقق بالنبي ﷺ إلى شهود الله في سره ونوره.

ويمكن أن نطلق على هذه المراحل درجات التحقق الأولى في الشيخ في مقابل درجات التحقق بالذات الإلهية، بمعنى أن المريد يبدأ – في نظرهم – بالترقي في مراحل التدرج مع الشيخ بدءًا من معرفته إلى الفناء فيه إلى شهود النبي ﷺ حتى يصل إلى الله فيعرج في مراحل أخرى مطابقة للمراحل مع الشيخ، فيها معرفة وفيها فناء، وفيها شهود وهنا تكون المراحل الأولى بمثابة التدريب والتمرين للمراحل الثانية، فما التنقل الأول في أدواره المتعددة إلا تدريبات سلوكية يقوم بها المريد في تجارب أولى لمعرفة فعل الله في الشيخ، والفناء به، ثم الشهود فيه،

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٣٠.

لينتقل بعد ذلك وبعد أن يجتازها إلى معرفة أنوار الله والفناء فيها وشهودها.

وتبدأ تلك المرحلة من الدرجة الأولى بمعرفة الأستاذ ومنزلته والدنو منه حتى تتجلى بصيرته معه ويراه على الحقيقة التي تولاه الله عليها، فإذا وصل إلى البصر بأستاذه وأدركه انتقل إلى الرتبة الثانية فسلم له زمام أمره، وألقى له حبله ليسوسه، ونسي إرادته في إرادة شيخه فيفنى في تلك الإرادة المحلوة بجلاء الله، وفي المرحلة الثانية يتعرف خلالها على شيوخ الطريقة، ويصل إلى الكبير الذي هو مؤسس الطريقة أصلاً، إن كان المريد لم يتلق عنه وإنما تلقى عن نوابه ثم ينتقل بعدها إلى الدرجة الثالثة ليتحقق بالوصول إلى النبي والفناء في حكمه وأوامره بمعاونة شيوخه ونصائحهم، وما إن يصل إلى التحقق بالرسول ﷺ حتى يرتقي بعده إلى معرفة الله والوقوف عند بدايات أسراره وإلهاماته ليبدأ الدورة الكبرى مع الذات الإلهية في معارج قدسية أخرى على نفس منوال التعرف والفناء والشهود السابقة.

ونلاحظ على مراحل التحقق بالشيخ أن المعرفة الأولى به أسلمت إلى الاستسلام والفناء فيه، والفناء فيه أسلم إلى الفناء في بقية السلسلة التي ينتمي إليها المربي، فبالوقوف عنده أوقفنا على غيره، وبالوقوف على شيوخ الطريقة بما فيهم القطب الكبير فيها أسلمنا هذا القطب إلى النبي، ومن النبي صعد السالك إلى الله جل جلاله، وترد إلينا هذه المراحل من مصدرين: مصدر عربي وآخر فارسي:

أما المصدر الأول: فيقول علي بن محمد وفا: إن أول مبادئ المريد أن تتحلى طويته بسمات أهل الصلاح والولاية، فإذا كشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه وولايته في صفاء صورة أستاذه فينطق بأن أستاذه هو الصالح الولي فيستمد من بركات ملاحظته المتوالية، وهممه العالية، ولا يزال مطلبه من الأستاذ

دعواتـــه المنيفة، وخواطره الشريفة، فيتودد إليه تودد المستأنس حتى ينفخ إسرافيل العـــناية في صـــور صورة قلبه روح التخصيص الآدمي، فهناك يشهد أستاذه آدم الـــزمان، ومالك أزمنة الأكوان فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المهاب إلى أن يسفر حجاب صورته الآدمية عن جمال ما خصه من الروح المحمدية فهناك يشهد أستاذه ســـيدًا محمديًّا، ويكون لـــه عبدًا، ولا يجعل لـــه في سواه إربا ولا قصدًا إلى أن يغشـــى ســـدرة ســـره الأنوار الروحانية وتبزغ من البصر نـــزغة الزيغ وغطاء الطغيانـــية، فينظر إلى أستاذه فلا يرى إلا الواحد يتجلى في كل مشهد على قدر وسع الشاهد، فيصير عدمًا بين يدي وجوده، ومحوًا في حضرة شهوده، فأول أمره توفـــيق وأوســـطه تصديق، وآخره تحقيق، وهذه النهاية هي بداية السعادة بقدم الصدق في مقعد صدق عند مليك مقتدر[1].

فقد بيَّن النص أن مرحلة البداية تخلية القلب والنفس وتحليتها بدلائل وسمات أهـــل الصـــلاح والإرادة والهمة ويظل كذلك حتى يرى صلاح أستاذه بالمؤانسة والـــتودد والدعوات، وكلما ترقى كشف لـــه من مراقي أستاذه ودرجاته فيراه مرة آدميًّا، وأخرى محمديًّا وعندما يراه كذلك تسقط عنه الغواشي، ولا يرى في الأستاذ إلا الواحد يتجلى في كل منظر على قدر رؤية الشاهد واستطاعته، عندئذ ينتقل من حال البصيرة إلى حال الفناء والعدم بين يدي هذا الشيخ.

هـــذا الحـــال الذي يقول عنه مرة أخرى: من كان مع أستاذه بلا إياه كان أســـتاذه باقـــيًا معه باللـــه أي من كان فانيًا في حظوظه مع أستاذه كان الأستاذ باقـــيًا معـــه باللـــه، ثم ينتقل من حال الفناء إلى حال الشهود في حضرة المربي، وعـــندما يشـــهد في شيخه الكمال يجده حضرة الحق التي بها أرواح أئمة الهدى

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى ج٢: ٢٩، ٣٠، ٢٥، ٣٧.

أجمعين بالنسبة إليه[1] ويكون المريد على حسب رؤيته للشيخ فأنت على الصورة التي تشهد أستاذك عليها، فاشهد ما شئت، وانظر ما ترى إن شهدته خلقًا فأنت خلق، وإن حقًا فأنت حق[2].

وبهذا التنقل من التعرف على درجات الشيخ ومكانته إلى الفناء إلى الشهود للمربي يكون السالك قد وصل إلى البداية الصحيحة للمعاملة مع الحضرة الربوبية.

وأما تصور المصدر الفارسي الصوفي لقصة العروج من النفس إلى الشيخ والتنقل في جنباته فإنها قد وردت في كتاب (ماكدونالد) المسمى «الحياة والوضع الديني في الإسلام» وقد نقل عنه (نيكلسون) في كتابه: «الصوفية في الإسلام» وجاءت المرحلة الأولى من مراحل التنقل السابقة كتجربة صنعها مولى شاء (مع تلميذه) توكل يك ولنسمع التلميذ وهو يرويها لنا قائلاً: أجلسني أمامه وكأن حواسي سكرى، ثم أمرني أن أستحضر هيئتي في نفسي، وبعد أن عصبت عيني سألني أن أجعل ذهني كله منصرف إلى قلبي فأطعته، فانفتح قلبي بعد لحظة بفضل الله، وبمعاونة الشيخ الروحية، رأيت حينئذ في باطني شيئًا مقلوبًا كأنه الكأس فلما اعتدل امتلأ باطني سعادة لا تتناهى، وقلت للشيخ: هذه الصومعة حيث أجلس أمامك الساعة أراها ابتعثت ابتعاثًا صادقًا جديدًا في باطني، وكأن (توكل بك) غير يجلس أمام (مولاه شاه) غيرك، قال الشيخ: خيرًا الصورة الأولى التي انكشفت لك هي صورة الشيخ، ثم أمرني أن أكشف عيني، فرأيته بباصرتي جالسًا أمامي، ثم أمرني أن أعصبها ثانيًا فأدركته ببصيرتي جالسًا أمامي كحاله بباصرتي فملئت بالعجب والاستغراب، وصحت به: أيها الشيخ سواء علي

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

أنظرت بباصرتي أم نظرت ببصيرتي فأنت الذي أراه دائمًا[1].

أما المرحلة الثانية والثالثة فقد قصَّ لنا نظام الدين الخاموشي أن: شيخه علاء الدين العطار أراد يومًا أن يزور الولي العظيم محمد بن علي الحكيم الترمذي، قال -أي نظام الدين- فلم أصحبه، وبقيت بين أهلي ولكن أفلحت بتوجهي إلى الولي العظيم وقصر فكري عليه، بأن استحضر ذاته الروحانية أمامي، حتى أن شيخي حين وصل إلى مقام وجده خاليًا، ولا بد أنه قد أدرك ذلك، فإنه حين رجع جهد جهده أن يجذبني تحت سيطرته فتوجهت، وبذلت الجهد لأخلص منه، ولكني كنت كالحمامة، والشيخ كالبازي يطاردني.

فحينما توجهت كان من ورائي دائمًا، فلما أعيتني النجاة آخر الأمر احتميت بالذات النورانية للنبي ﷺ، ونجحت في لألائها الذي لا يبلغ له آخر، فلم يستطع الشيخ حينئذ أن يوقفني تحت سيطرته بعد ذلك، ووقع في كرب، ولم يعلم أحد سواي سبب ذلك[2] ولم يفلت من شيخه علاء الدين العطار إلا لأنه شاهد بعد تفكر الروح النورانية للحكيم الترمذي فسبق الشيخ خاصة بعد أن لاذ بالنبي ﷺ مشاهدًا وكاشفًا به.

رد هذا المبالغات

١- لا يسلم مسلم بهذه المبالغات السابقة فضلاً عن قبولها بسهولة أو بصعوبة، كما لا يرتضيها أنصار التصوف السني ولا رجاله، ويكتفون بالآداب الصحيحة التي سقناها في الفصل السابق، إذ كيف نقبل مثل هذا الشطح الوارد في المراحل السالفة، أو كيف نقبل قول ابن وفا مع ما سبق، لا يجوز للمريد أن يفارق حضرة أستاذه، لموضع آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

(١) نيكلسون: الصوفية في الإسلام ١٣٣ – ١٣٥.
(٢) نفس المرجع.

التي هي دون الحضرة التي شهد أستاذه فيها، وكيف يشتغل عن بيت وضعه الحق لنفسه — وهو الشيخ — ببيت وضعه للناس، أو عن مجالسة مظهر أرواح الأنبياء والتلقي عنها مجالسة مشافهة بآثار أبدانهم وأفعالهم[1].

كيف نقبل مثل هذا مع أن النبي ﷺ مع حاله من فضل عظيم عند الله تركه عمر وغيره من الصحابة وذهبوا لحج بيته سبحانه، ولم يطالب الرسول صحابته أن يتمثلوه تمثلاً كهذا الذي رأيناه عند هؤلاء المغالين.

٢- إن أنصار هذه المبالغات هم صوفية وحدة الوجود المتفلسفة من بين العرب أو الفارسيين، يظهر هذا من أفكارهم المعلنة في غير هذا الموضع ومن مصطلحاتهم في تلك الفكرة التي تحت أيدينا، ولسنا نطعن عليهم لمجرد القول بوحدة الوجود، أو لأنها فكرة خارجة عن الإسلام بل إن مقصودنا من وراء هذه الفقرة هو القول بأن أقوالهم في الشيخ هي امتداد لنظرية وحدة الوجود التي ترى أن الله فاعل ومدبر لكل الموجودات وأنها مجالي هذا الوجود الإلهي ومظاهره[2].

وكل موجود يأخذ من الموجودات الإلهية ما يناسبه مهمة ومادة، وطبقًا لهذا فالشيخ مجلي من المجالي العظيمة التي ننظر فيها ونقف عندها طويلاً لنحصل من خلالها على ثمار عرفانية نصل بها إلى الواحد جل جلاله، هذا ولا ننسى في هذا الصدد أن التصوف الفارسي كان أخصب خيالاً في الشطح، وأكثر خروجًا وقبولاً للأفكار الشاردة من التصوف الذي ينطق أربابه باللسان العربي الذين كانوا يتسمون في معظمهم بالاعتدال والاستقامة.

٣- يجب أن نستظهر معًا ما سبق أن دوناه من اعتراف أجلاء الصوفية أن وساطة

---

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: ج٢: ٢٥.

(٢) ارجع إلى بحثنا: نظرية وحدة الوجود.

الشـــيخ ما هي إلا تربوية فقط، وأن نضع بجانب ما أثبتناه قول الشيخ محمد الســـايح: فالشـــيخ في هذه الأمور دال ومعين ... والدلالة للشيخ[1] فقط، وقول الشيخ علاء الدين العطار أستاذ نظام الدين الحاموشي معلقًا على كلام تلميذه الذي زعمه: لخير وأقوم أن تكون بجانب اللـــه من أن تكون بجانب خلق الله[2].

ومـــن الواضـــح أننا لو أخذنا بآراء ابن وفا السابقة ومن سار على منوالـــه لكانت الوساطة حاجبًا للعين عن الوصول إلى اللـــه إلا من خلال الشيخ، ولكن المربي هو الوسيط والموصل والرباط الذي يربط المريد بالمولى جل جلالـــه، وبهذه الأفكار لا تكون الوساطة تربوية فقط بل تريد كثيرًا عن ذلك.

(١) السايح: بغية المستفيد: ٢٠.

(٢) نيكلسون: الصوفية في الإسلام ١٣٦ – ١٣٧ ترجمة نور الدين شريبة.